



العلاقة بين روسيا والولايات المتحدة دخلت مرحلة صراع صامت. هذا على الأقل ما تشهد عليه الأرض السورية. كان التعايش المضطرب بين الدولتين توصل إلى اتفاق معلن في شأن الجنوب الغربي لسوريا لتحييد الأردن وإسرائيل عن الصراع الداخلي، وإلى شبه اتفاق غير معلن على «الحدود» في الرقة ودير الزور. الأول جاء في سياق الترويج الروسي لـ«مناطق خفض التصعيد»، فيما خضع الآخر لظروف محاربة تنظيم «داعش». وفي الحالين كان الاهتمام الأميركي مركزاً على الحدّ من التمدد الإيراني، ومنع فتح الحدود أمام تنقل الميليشيات بين سوريا والعراق.

لهذه الغاية كان لا بدّ من تعاون روسيا، وبيدو أنها تلتزم به في الجنوب الغربي وتحاول ما أمكنها إرضاء إسرائيل بما في ذلك الصمت حيال الغارات الجوية المتكررة على موقع ومستودعات أو مصانع صواريخ لإيران و«حزب الله»، أما في الرقة فسبق للروس أن احتجوا بشدة على إسقاط طائرة للنظام السوري قبل إغاثتها على «قوات سوريا الديمقراطية» (قسد)، لكن الاحتجاج تحول في دير الزور إلى قصف جوي لهذه القوات التابعة لقيادة الأميركيّة وتحذير شديد اللهجة بعد إطلاق نار على قوات النظام. وقد حصل الاحتكاك بين الطرفين على أثر عبور «قوات النظام»، وهي كالعادة إيرانية في غالبيتها، إلى شرق الفرات، إذ كان ثمة اعتقاد بأن محافظة دير الزور قسمت إلى «شرق أمريكي» و«غرب روسي» بتفاهم بين الدولتين. غير أن مسار المعركة ضد «داعش» ربما أقنع الروس بأن ذلك «التفاهم» ليس عملياً، فالأفضلية لمن يحرز تقدماً على الأرض ضد التنظيم، بمعزل عن تقاسم المناطق. نتيجة لذلك رفع الإيرانيون علمهم في دير الزور، على رغم أن عشائرها ترفضهم مقدار رفضها «داعش»، ولم يعد ممكناً للأميركيين أن يتحكموا بمعارك استكمال استعادة المناطق الأخرى وصولاً إلى معبر البوكمال السوري المقابل للقائم العراقي، أي أن الإيرانيين في صدد تحقيق هدفهم الاستراتيجي بفتح الطريق من طهران إلى بيروت، فما خسروه في الجنوب الغربي يعوضونه في الشمال الشرقي. ما كان ذلك ليحصل لو لا موافقة روسية باتت الآن تلقائية، والأسباب ثلاثة: أولاً، أن موسكو ترى فرصة متاحة لإثبات دورها في محاربة الإرهاب في استرجاع للأهداف المعلنة لتدخلها في سوريا. ثانياً، أنها تفضل الحفاظ على شراكتها مع طهران بعدما نفذ صبرها في انتظار مكاسب

من التعامل مع إدارة دونالد ترامب، وبغية إقامة نوع من التوازن مع الامتيازات التي منحتها إلى إسرائيل. وثالثاً، لأن موسكو تعزز تعاونها مع إيران وتركيا سعياً إلى تأسيس حالٍ من المنافسة للولايات المتحدة لوراثة دورها في محاربة الإرهاب، وربما تتطلع إلى أن تشكل نهاية سيطرة «داعش» بداية انسحاب أميركي من المنطقة.

إذا كانت «مناطق خفض التصعيد» هندسة روسية لتصفية أي معارضه مسلحة لنظام بشار الأسد تمهدأ لخفض التوقعات من أي حل سياسي وصولاً إلى تصفية المعارضة السياسية، فيبدو أن هندسة «نهاية داعش» تُركت لإيران التي قطعت شوطاً في تدبير انففاء التنظيم لاستخدامه في ضربات مستهدفة أو لتنشيطه ووضعه في خدمة الشراكة الروسية - الإيرانية في سوريا والعراق وعموم المنطقة. كثيرون من الذين شاركوا في اجتماعات آستانة لا يخفون، بعيداً من أضواء الفعلام، أن الروس وحدهم يصدقون أن خطة «مناطق خفض التصعيد» فاعلة بل حاسمة، حتى شركاؤهم لم يصدقوا، لكن بحثهم عن مصالحهم دفعهم إلى الانخراط في اللعبة، الأتراك لأنهم يعانون سلبية تلامس حد العداء من جانب «الحليف الأميركي»، والإيرانيون لأن الدور الروسي ساعدتهم في إشهار دورهم و«شرعنتهم» كما في تركيز وجودهم في سوريا من دون أن يمس بالخطط الاستراتيجية للفوزهم.

قبل أسبوعين تداول سوريون موالون ومعارضون بكثرة رسمياً كاريكاتورياً لـ «نيويورك تايمز» أظهر الأسد فوق جبل من الركام وإلى جانبه الرئيس الروسي يرفع يد الأسد عالياً ويشير إليه بإصبعه قائلاً: «الرابح يأخذ كل شيء»... لكن «الرابع» الحقيقي هو فلاديمير بوتين. فالانطباع المتزايد حالياً في أوساط السوريين كافة أن روسيا ما بعد آستانة غير روسيا ما قبلها، وما لا ي قوله الموالون قاله المعارضون منذ بداية التدخل: إنه الاحتلال الروسي. فهو يوضح ملامحه أكثر فأكثر، وقد رصد تحقيق لصحيفة «لوموند» توسيع الحضور الروسي من استخباراتيين «في كل مكان»، إلى «خبراء» جبهة القتال ضد «داعش» إلى مراقبين شيشانيين وأوسيتيين على حدود «مناطق خفض التصعيد». ويشير من يُعرفون بأنهم «رجال أعمال النظام» أن روسيا فتحت اعتمادات لإطلاق ورشات للإعمار والبنية التحتية، وبما أنهم حققوا أرباحاً من اقتصاد الحرب والتسهيلات التي منحت لهم فقد دُعوا إلى التعاون مع المسعى الروسي، لكنهم غير مقتنيين بأن هناك فرصة استثمارية حقيقة أو حتى مجالات للكسب.

ترافق ذلك مع رسائل تلقتها الدول الأوروبية، وحتى البنك الدولي، بأن لا حاجة إليها في مشاريع إعادة الإعمار. لذلك عاد «الأسد المجرم» فقفز فجأة إلى خطاب الرئيس الفرنسي على منبر الأمم المتحدة، فيما تسلم القضاء الألماني قسماً من وثائق «قيصر» التي تدين النظام السوري في ما يُعتبر بداية محاكمة لمجري التعذيب. يُعزى ذلك إلى أن اتصالات الأوروبيين مع بوتين دفعتهم إلى التنازل بقبول حل سياسي يُبقي الأسد في الحكم، ثم وجدوا أن موسكو تسعى إلى ابتزازهم بملف إعادة الإعمار على رغم أنها لا تملك فيه خيارات كثيرة، بل إن المطلوب منهم أن يساهموا في تعويم الأسد دولياً وتطبيع العلاقات مع نظامه ورفع العقوبات عنه، طالما أن الروس أمنوا له الانتصار عسكرياً في الحرب ويعملون لتأمين انتصاره سياسياً. غير أن تقويم موسكو لإنجازاتها، ووفقاً لمفاهيمها وخطتها، ومصالحها طبعاً، لا يتطابق بالضرورة مع تقويم الأطراف الأخرى وتوقعاتها لمصالحها. صحيح أن الحسابات الغربية في سوريا لا تتشابه مع التي نشأت في أوكرانيا، لكن الاعتراف باليونين بانتصاره هنا يضعف المواجهة معه هناك.

عملياً، بلغ الروس كما بلغ نظام الأسد والإيرانيون قبلهم، لحظة الحقيقة التي ينبغي أن يقرّروا فيها إذا كان احتزاز الانتفاضة الشعبية السورية بالجسم العسكري صالح لإنتاج حل سياسي يناسب السوريين والأهداف التي طرحتها انتفاضتهم، وهذا جوهر الأزمة، أم أنهم يبحثون عن حلٍ يلبي مصالحهم. فالمعطيات الراهنة لا تشير إلى حلٍ قريب أو إلى حلٍ يمكن أن ينهي الأزمة. ليس أدلّ إلى ذلك من إشارة سيرغي لافروف في نيويورك إلى «ضرورة انسحاب القوات الموجودة في سوريا في شكل غير شرعي فوراً بعد الانتهاء من عملية القضاء على الإرهابيين فيها». وهذا يشمل بالنسبة إلى روسيا التحالف الدولي

بقيادة الولايات المتحدة و «القوات الخاصة لعدد كبير من الدول»، ولا ينطبق على إيران «لأن بقاء الجهات التي تمت دعوتها من جانب الحكومة السورية ستقرره القيادة السورية نتيجةً للعملية السياسية». وهي العملية التي تريد موسكو التحكم من خلال التحكم بمن يمثل المعارضة في جنيف وكيف يفاوضون عنها.

بالنسبة إلى لاعبين كثر في سورية، باتت خريطة «مناطق خفض التصعيد» مسودة لخريطة مناطق النفوذ، أما المعارضون السوريون، عسكريين مشاركين في آستانة أو سياسيين مفاوضين في جنيف، فيتخوّفون من كونها خريطة أولية لتقسيم سورية. العسكريون أحبّتهم نهج التدمير والإبادة وكانوا أول من استشعر الاحتلال الروسي وفعاليه، والسياسيون أحبّتهم الخذلان الدولي والاستسلام لآلة القتل الروسية وكانوا أول من لمس التخلّي الأميركي عن قضيتهم بعد اختزالها بالإرهاب، وليسوا وحدهم من لا يعرفون نيات الولايات المتحدة، فلافروف يعتقد أن لديها أهدافاً أخرى في سورية «لا نعرفها حتى الآن» وقد تتضح «عندما تتم هزيمة داعش وجبهة النصرة». من الواضح أن موسكو لا تربط أبداً بين بقاء الأسد والوجود الإيراني وبين استمرار الإرهاب وتولي إيران إعادة تدويره، إلا إذا كانت تطلق رسالة إلى واشنطن بأنها جاهزة للمساومة في سورية وعليها.

الحياة

المصادر: